بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة شهيد تشمران الأهواز

كلية الإلهيات و المعارف الإسلامية

قسم اللغة العربية و آدابها

رسالة الماجستير بعنوان

دِراسةٌ تَحليليّةٌ فی شرحِ حُسينيّاتِ العلامة الرّبيعی

يقدمها الطالب

سمير پوريان پور

الأستاذ المشرف

الدكتورة خيرية عچرش

الأستاذ المساعد

الدكتور صادق سياحی

شهريور ۱۳۹۲

الإهداء :

أهدى هذا العمل العلمىّ المتواضع إلى :

مَن هُم فى صميمِ أفكارى فى أعلى ذروةِ المَجدِ و المَحبّة و الإعظام

ألا و هُم أحبّائى أساتذتى الكرام :

الأستاذة المشرفة المحترمة الدكتورة خيريه عچرش

الأستاذ المساعد الحبيب الدكتور صادق سياحى

الأستاذ الحبيب الدكتور محمود شكيب أنصارى

الأستاذ الحبيب الدكتور حسن دادخواه تهرانى

الأستاذ الحبيب الدكتور غلامرضا كريمى فرد

الأستاذ الحبيب الدكتور آبدانان مهدى زاده

و إلى روح والدى المرحوم الموالى المحب

الذى غذّانى حبّ سيّد الشهداء عليه السلام .

الملخص :

يُعدُّ الرّثاءُ الحسينى مِن أهمِّ الأغراض الشعرية القديمة و أصدقها ، بَل أصدق ضروب الآداب الإنسانية على الإطلاق و أكثرها صلةً بالنّفس البشريّةِ و إلتصاقاً بالوجدان الإنسانى ، و هو مِن أكثر أغراضِ الشّعر إستمراريةً و بقاءً ، فلهذا و بسببِ الصّلةِ الوطيدة بين موضوع الرّثاء و النّفس البشريّةِ ، قلّما نجدُ شاعراً و هو لا ينظمُ شعراً فى الرّثاء ، و لكن هناک بعضُ الشّعراء قد برَعوا فى غرضِ المراثى ، و ما هذا إلا بسبب القدرةِ الذاتيةِ و الإحساسات و البواعث الخارجيّةِ . قسمٌ واسعٌ مِن الرثاء يختصُّ بفادحةِ عاشوراء و يُطلقُ عليه الرثاء الحسينى أو أدب عاشوراء و غير ذلک ، و هو أهمُّ أنواع الرثاء و أصدقها لأنّه قائمٌ على عقيدةِ و إيمان . إنَّ العلامة الربيعى أحدُ هؤلاء البارعين فى الرثاء الحسينى و هو بصفتِه عالمٌ دينىٌّ فقيهٌ قد تسلَّط على كثيرٍ من العلوم العقلية و النقلية ، نرى إختلافاً جليّاً بين مرثيّاته و منظومات باقى الشعراء ، و نجدها أدراجاً أعلى من رثاء كثيرٍ من الأدباء ، و ذلک فى إستخدامه الكلمات و العبارات و إستعمال الإستفهام و النداء و التشبيهات و عاطفتِه الصادقة و خياله الواسع لتصوير المعنى و إيصاله إلى ذهن المخاطب .سعيتُ فى هذه الرسالة أن أشرح بعضَ رثائه لغوياً معنوياً بلاغياً تاريخياً روائياً عقائدياً و أن أدرسَ زوايا الأسلوب و الموسيقى و العاطفة و الخيال .

الكلمات الدليلة :

الرثاء ، العلامة الربيعى ، الرثاء الحسينى ، الشرح

المقدمة :

ما عرف التّاريخُ مِن أوّل الناس حتى يومهم هذا أنَّ شخصاً قيل فيه الرّثاءُ مِن الشّعرِ و النّثرِ كسيدالشهداء عليه السلام ، فقَد رَثاهُ كلُّ عصرٍ و كلُّ جيلٍ بِكُلّ لسانٍ فى جميع الأزمان ، و وجد الشيعةُ مجالاً لِبَثِّ أحزانِهم ، و متنفّساً لآلامِهم مِن طريق الرثاءِ الحسينى عليه السلام ، سيّما و هذه الفرقةُ محاربة فى كلِّ الحكومات الظالمة فى جميع الأدوارِ ، و مِمّا ساعدَ على ذلک أنَّ فاجعةَ الطّفِّ هى الفاجعةُ الوحيدةُ فى التاريخ بفواجِعها و فوادحِها ، فَتَمَيَّزوا بالرثاء و أبدَعوا فيه دونَ باقى ضروبِ الشّعرِ فأجادوا تصويرَه و تنميقَه[1]. عندما يذكرُ (شوقى ضيف) أبياتٍ مِن الشّريف الرّضى فى رثاء سيدالشهداء عليه السلام يقول :

(فكُلُّ بيتٍ منها يثيرُ و يحمس ، بَل يفجّرُ الدّموعَ أنهاراً ، فلا غروَ أن تعاقب الشّيعةُ مِن عصر الشريف الرضى إلى عصرِنا ينظمونَ المراثى فى الحسين)[2].

كان السّببُ الكبير الذى دفعَ بالشّيعةِ لهذا الإكثار مِن الشّعر ، هو حَثُّ أئمّتهم لهم على ذلک ، و ما أعدَّ اللهُ لهم مِن الثّواب تجاه هذه النّصرة ، و سَنَمُرُّ فى شرح الأبيات على كلام الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول : (مَن قال فى الحسينِ شعراً فبَكَى و أبكَى غَفرَ اللهُ له و وجبت له الجنّة)[3].

و على هذا النّحو لايزالُ مصرعُ سيدالشهداء عليه السلام حتى عصرنا يوحى لشعراءِ الشّيعة بمَراثٍ هى الغايةُ فى الحزن الممضّ و الألم المحرق[4] ، و لقد لَعب الرّثاء الحسينى دوراً ناهضاً قويّاً أرَّخ لِكثيرٍ مِن الجوانبِ المهمّة ، و كشفَ عن مواقف بطولية لجميع الأشخاص الذين ساهَموا فى تلک المعركة الدّامية ، و كان هو الأدبَ الأكثر بروزاً فيها ، و لاسيّما (الرّجز الحربى) منه إذ لا يُشكّ فى كونهِ الطّابع العام لأىِّ معركةٍ فَضلاً عن فاجعةِ الطَّفِّ التى نتحدّث عنها ، و الذى شكَّل فيها نتاجاً ضخماً ربّما لا يكاد يضارعه نتاج قياساً بالفترة الزّمنية القليلة التى اكتنَفَت هذه الحادثة بجميع تفاصيلها المؤلمة الموجعة ، و مِن الواضحِ أنَّ هذه الحادثة الدّامية التى أبكَت السّماوات و الأرضين و ما فيهما ، قد حَظيَت أكثر مِن غيرها بوجود رواةٍ سَجَّلوا جميعَ أحداثِها التى دارت ، و منهم (حميد بن مسلم) الذى تمتاز شخصيّتهُ عند البعض بالحياديةِ التّامة ، و هو ما دفعَ (الطّبرى) و غيره إلى الأخذ بواسطةِ (أبى مخنف) عنه ، كما أنَّ عدداً غير قليل مِن المؤرّخين قد اعتمد نقل النّصوص الشّعريّةِ التى بينَ أيدينا عن

---

[1] – جواد شبر : أدب الطّف أو شعراء الحسين عليه السلام ، عشرة أجزاء ، ط ١ ، مؤسسة التاريخ العربى ، بيروت ، ١۴١٨ هـ ق ، ج ١ ، ص ٢١ .

[2] – شوقى ضيف : فنون الأدب العربى ، الفن الغنائى ٢– الرثاء ، ط ۴ ، دار المعارف ، القاهرة ، لا ت ، ص ٣٩ .

[3] - عبدالرزاق الموسوى المقرم : مقتل الإمام الحسين عليه السلام ، ط ١ ، انتشارات مكتبة الحيدرية ، مطبعة شريعت ، قم ، ١۴٢۵ هـ ق ، ص ١١٣ .

[4] – شوقى ضيف : فنون الأدب العربى ، الفن الغنائى ٢– الرثاء ، ط ۴ ، دار المعارف ، القاهرة ، لا ت ، ص ۴٠ .

الرّواية الشّفهيّة التى حفظها عددٌ مِن أفراد الجيشِ الأمويّ لعنهم الله ، فَهُم قد شهدوا المعركةَ و راقَبوا أحداثَها عن كثب ، و لَم تكن روايةُ تلک الأشعار مقتصرةً على هذين المصدرين بَل كانت العائلةُ العلويةُ عليهم السلام تروى بعضاً مِمّا سَمِعته آنذاک ، و كما قلنا آنفاً أنَّهم أوّل مَن أنشدَ الرّثاءَ فى هذه القضيّة المُرزية .

مِن الملفتِ للنّظرِ فى هذا الفنِّ مِن الشّعر و هو الرّثاءُ الحسينى عليه السلام ، يمتازُ أدبُ الفقهاء حيث سجَّل الخالدات ، و منها ما هو فى الذّروة مِن الصّناعة الشّعريّة و بلاغة القول ، حتى أنَّ الأجيالَ المتعاقبة مِن لدُن قيلَت هذه المراثى لَم تفتأ تتردّدبها و تنشدها فى المجالس و تكتبها على الجدارنِ و الأعلامِ و الأضرحة ، و أنَّها أطول نفساً و أكثر حوادثَ ، و أغنى بصورِ البطولةِ و الكفاحِ و الإيثار مِن أجلِ إثباتِ الأدب العربى ، و إعلان رسالة الإسلام المقدّسة و المذهب الحقّ .

مِن ناحيةٍ أخرَى أنَّ الفقهاءَ كلّما جاهدوا و اجتهدوا فى طلبِ العلم و الدّراسة و التّحقيق فى شتّى العلوم خاصَّةً ما يخصُّ الشّريعة السّمحاء ، وجَدوا أنَّ سيدالشهداء كلمةُ الحقّ ، و الباب المبتلَى به الخلق ، و رحمة الله الواسعة ، و باب الله الذى منه يؤتَى ، و مصباح الهدَى و سفينة النّجاة ، و السّبيل السّهل للوصلِ إلى كمال المرضىّ عند الله تعالى ، بَل لا سبيلَ غير طريق سيدالشهداء عليه السلام ، ثمّ باختلاف درجاتِهم مِن الخشوع و الخضوع و التّذلُّل عند هذا الباب حصَلوا على القُربِ مهه ، و أخذوا يعبّرون عَن عواطفِهم و مشاعرِهم بالمراثى الصادقة النّابعة عَن إخلاصٍ و وُدٍّ و علمٍ بما جرَى ، و أحدُ هؤلاء الكرام المعاصرين هو المرحوم العلامة الشيخ عبدالعظيم الرّبيعى رضوان الله تعالى عليه ، و سنمرُّ على وجيزةٍ مِن حياتِه و شعره إن شاء الله تعالى .

الرَّثاءُ لَغةً و إصطلاحاً :

رَثَى فلانٌ فلاناً : يَرثيه رَثياً و مَرثيةً ، أى : يبكيه و يَمدَحُهُ ، و الإسمُ : المرثيةُ ، و لا يَرثَى فلانٌ لفُلانٍ ، أى : لا يتوجَّعُ إذا وَقعَ فى مكروهٍ ، و إنّه ليَرثَى لفُلانٍ مرثيةً و رَثياً ، و المُتَرَثّى : المُتَوَجِّعُ المفجوع ، قال الزّاجر :

بُكاءَ ثكلَى فَقَدَت حَميما فهى تُـرَثّـى بأبا و ابنيما[1]

فـ رَثَى فلاناً : إذا بَكاهُ بعدَ موتِه ، فإن مَدَحَه بعدَ موتِه قيل : رَثّاهُ يُرَثّيه تَرثيَةً ، و رَثَيتُ الميّتَ رَثياً و رِثاءً و مَرثاةً و مَرثيةً ، و رَثَّيتُه : مَدَحتُه بعدَ الموتِ و بَكيتُه ، و رَثَوتُ المَيِّتَ أيضاً : إذا بكيتُه و عدَّدتُ مَحاسنَه ، و كذلك إذا نظمت فيه شعراً ، و رَثَتِ المرأةُ بَعلَها تَرثيه و رَثِيَته تَرثاهُ رِثايَةً فيهما ، و تَرَثَّت كـ : رَثَّت ، و إمرأةٌ رَثّاءَةٌ و رِثّاية : كثيرةُ الرّثاءِ لبَعلِها أو لغيرِه مِمَّن يُكرمُ عندها تَنوحُ نياحةً . رَثَيتُ له : رَحِمتُه ، و يقال : ما يَرثى فلانٌ لى : أى : ما يَتَوَجَّعُ و لا يُبالى ، و إنّى لأرثى له مَرثاةً و رَثياً ، و رَثَى له أى : رَقَّ له ، و فى الحديث : أنَّ أختَ شَدّاد بن أوس بَعَثَت إليه عند فِطرِه بِقَدَحِ لَبن و قالت : يا رسول الله إنّما بَعَثتُ به إليک مَرثيةً لکَ مِن طولِ النّهار و شِدَّةِ الحَرِّ ، أى : تَوَجُّعاً لکَ و إشفاقاً ، مِن رثَى له إذا رَقَّ و توجّع ، و هى مِن أبنيةِ المصادر[2] .

(الرّثاءُ) فَنٌّ مِن فنونِ الشّعرِ الغنائىّ يُعَبِّرُ فيه الشاعرُ عَن حزنِه و تَفَجُّعِه لفقدانِ حبيبٍ ، و هو مِن الموضوعات البارزةِ فى شعرِنا ، إذ طالَما بكَى شعراؤُنا مَن رَحَلوا عَن دنياهُم و سبقوهم إلى الدّار الآخرةِ ، و هو بُكاءٌ يتعمّق فى القدم مُنذ وُجِد الإنسانُ ، و وَجَد أمامَه هذا المصير ، مصير الموت الذى لابُدَّ أن يصيرَ إليه فيصبح أثراً بعدَ عينٍ ، و كأن « لَم يَكُن شَيئاً مَذكوراً » (الإنسان : ١) .

يَتَلوَّنُ (الرّثاءُ) بألوان مختلفةٍ تبعاً للطبيعةِ و المزاج و المواقف ؛ فإذا غَلَب عليه البُكاء على الرّاحل ، و بَثَّ اللَّوعةَ و الحزن ، كان (نَدباً) ، و إذا غلَب عليه تجسيلُ الخصال الحميدةِ التى تمتَّع بها الفقيدُ فى حياتِه كان (تأبيناً) ، و إذا غلَبَ عليه التّأمّل فى حقيقةِ الموت و الحياةِ كان (عزاءً) ، و قد يجتمعُ النّدبُ و التّأبينُ و العزاءُ فى القصيدةِ الواحدةِ[3] .

---

[1] – أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدى : كتاب العين ، ط ٢ ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ١۴٢۶ هـ ق ، ذيل (رثى) .

[2] – محمد بن مكرم ، ابن منظور الأنصارى : لسان العرب ، تصحيح : امين محمد بن عبدالوهاب و محمد الصادق العبيدى ، تسعة أجزاء ، ط ١ ، دار إحياء التراث العربى للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ١۴٣١ هـ ق ، ذيل (رثا) .

[3] – إميل ناصيف : أروع ما قيل فى الرّثاء ، ط ٢ ، دار الجيل ، بيروت ، لا ت ، ص ۵ .

تاريخُ الرّثاء

العصر الجاهلى :

منذُ بدء الخليقةِ و الإنسانُ يتهرّبُ مِن الموت الذى لابُدَّ منه ، و يتذكّره كلّما سمع بوفاةِ أحدٍ ، و كلّما فقد عزيزاً ، و قليلونَ مَن يَجدون الصّبرَ أمامَ موتِ أحدِ الأقرباء أو الأعزّاء ، و مهما كان الإنسانُ غنيّاً أو فقيراً ، أميّاً أو مثقّفاً ، أو أسود أو أبيض ، يتألّمُ أمامَ الموت ، و يفتقد لِمَن ماتَ و يعدّدُ مزاياه ، حتى أنَّ البعضَ إذا مات عدوٌّ لَهم تأسّفوا عليه و وجدوا بعدَ فواتِ الأوان صفةً على الأقلّ حسنةً فيه كالأخطل عندما رثى الفرزدقَ بعدَ أن دامَ الهجاءُ بينهما عشراتِ السّنين .

عرف أدبُنا الرّثاءَ منذ العصر الجاهلى ، إذ كانت النّساءُ و الرّجال جميعاً يندبونَ الموتَى ، كما كانوا يقفونَ على قبورِهم مؤبِّنينَ لهم مُثنينَ على خصالِهم ، و قد يخلطون ذلک بالتّفكير فى مأساةِ الحياةِ و بيانِ عجز الإنسان و ضعفِه أمامَ الموت ، و أنَّ ذلک مصيرٌ محتومٌ ، و إذا كان الشّعراءُ أشدّ النّاس إنفعالاً و تأثّراً ، و طالما أنّهم لا يختلفون عن غيرِهم بالنّسبةِ لِمسألةِ الموتِ الذى يسلخ عنهم بعضَ الأعزّاء ، فإنّهم وقَفوا كثيراً أمام هذه المأساة الإنسانية ، و رثوا أحبّاءَهم و أقاربَهم ، و كلّ مَن كانوا يهتمّون لأمرِه .

الصّورُ التى بينَ أيدينا مِن هذا الرّثاء صورٌ راقيةٌ ، إذ نراها تعبّر عن شعورٍ عميقٍ بالحزنِ و الألم ، و مثل هذا التّعبير تسبقه مراتبٌ كثيرةٌ مِن تعبيراتٍ ساذجةٍ عن الموتِ و الموتَى ، و لكن هذه التّعبيرات لا نَجدُها فى الشّعر الجاهلى ، لأنّه كان قد فارَقَ المراحلَ الأولى ، و انتهى إلى مرحلةٍ فنّيةٍ راقيةٍ[1]، كما فى مراثى المهلهل ، و هو عدىّ بن ربيعة التّغلبى مِن شعراء العصر الجاهلى ، و هو خالُ الشّاعر امرئ القيس ، فَمِن غُرر منظوماتِه رائيةٌ قالها بعدَ دفن أخيه (كُلَيب) ، إذ وَقَف على قبرِه يرثيه ، و منها :

أهاجَ قَـذاءَ عَـيـنـى الإذكّارُ هُـدُوّاً فالـدّمـوعُ لَها انحِدارُ

و صارَ اللّـيـلُ مُشتَمِلاً علَينا كأنَّ الـلَّـيـلَ ليسَ له نَـهـارُ

و بِـتُّ أراقِـبُ الجَوزاءَ حتى تَـقـارَبَ مِـن أوائلِها انحِدارُ

أُصَرِّفُ مُقلَتى فـى إثـرِ قَـومٍ تَبايَنَتِ الـبِـلادُ بِهم فَـغـاروا

و أبـكـى و النّجومُ مُطَلّعاتٌ كأن لَم تَـحـوِها عَنّى البِحارُ

[1] – شوقى ضيف : فنون الأدب العربى ، الفن الغنائى ٢– الرثاء ، ط ٤ ، دار المعارف ، القاهرة ، لا ت ، ص ٧ .

على مَـن لو نُعيتُ و كانَ حَيّاً لَقادَ الـخَـيـلَ يَحجُبُها الغُبارُ

دَعَوتُکَ يـا كُلَيبُ فلَم تُجبنى و كيفَ يُجيبُنى الـبَـلَدُ القَفارُ

أبَـت عَـيـنايَ بَعَدک أن تَكُفّا كأنَّ غَضا الـقَـتـاءِ لَها شِفارُ[1]

و هذا (تأبّط شراً) و هو ثابت بن جابر بن سفيان الفَهمى ، الشّاعر الصَّعلوک الذى يُتَّصَفُ شعرُه بالجفاء الجاهلى القديم ، و بكثيرٍ مِن البداهة العاطفة و سذاجة الحكمة ، و اندفاع الإخلاص على ما هو معروفٌ فى أخلاق سائرِ الصّعاليک ، فنراهُ يرثى (الشّنفرَى) و يقول :

على الشّنفرَى سارِى الغمام و رائحٌ غزيرُ الكُلَى و صَيِّبُ الـمـاءِ بـاكِـرُ

و حتى رَماکَ الشّيبُ فى الرّأسِ عانِساً و خيرُک مبسوطٌ و زادُک حاضِرُ

و أجمَلُ مَـوتِ المَرءِ إذ كـانَ مَـيِّـتـاً -ولابُدَّ يوماً موتُه- و هو صـابِـرُ[2]

فلا نرتابُ فى أنَّ الرّثاءَ بدأ عند العرب كما بدأ عند كثيرٍ مِن الأمم الأخرَى بصورةٍ تشبه أن تكون سحراً حتى يطمئنّ الميّت فى مرقده ، و لا تصيب روحه الأحياءَ مِن ورائه بِشَرٍّ ، ثمّ أخذ يفقد هذه الغاية مع الزّمن ، و مازال حتى انتهى إلى الصّورِ الجاهليةِ مِن الإفصاح عن إحساس النّاس العميق بالحزن قِبَل الموتى ، و محاولة ذكراهم بتمجيدهم و بيان فضائلهم التى ماتت بموتِهم[3] .

الصّورة الجاهلية للتّأبين صورةٌ معقّدةٌ – بالنّسبة إلى قبلها- بما فيها مِن وسائل فنّية كثيرة ، إذ نرى شعراء الرّثاء يهتمّون بقوالب رثائهم و صيَغِه و يُنوّعونَها تنويعاً واسِعاً ، كما نجدُهم يهتمّون بصورِهم و استعاراتهم و تشبيهاتِهم

---

[1] – المهلهل عدى بن ربيعة التغلبى : ديوان المهلهل ، شرح و تحقيق : أنطوان محسن القوّال ، دار الجيل للنشر و الطباعة و التوزيع ، بيروت ، ١٤٢٦ هـ ق ، ص ٢٨ . هُدوّاً : ليلاً- الجوزاء : مِن أبراج النّجوم- انحدار : فى البيت الثالث بمعنى غروب- تباينت : بعدت بهم- غاروا : اختفوا- مطلّعات : طالعات- البلد القفار : البلد الخالى الذى لا يسكنه أحد- أن تكفّا : أن تنقطعا عن إرسال الدّمع- غضا القتاد : الشّوک المؤلم- الشّفار : منبت شعر الأجفان (نفس المصدر فى الهامش) .

[2] – فؤاد أفرام البستانى : المجانى الحديثة عن مجانى الأب شيخو ، تجديد و اختيار و شرح : لجنة من الأساتذة ، خمسة أجزاء ، ط ٦ ، انتشارت ذوى القربى ، قم ، مطبعة روح الأمين ، ١٤٣٠ هـ ق ، ج ١ ، ص ١٨ . السّارى : اسم فاعل مِن سَرى ، أى : صارَ ليلاً- الرائح : اسم فاعل مِن راحَ ، رجَع مساءً- الكُلى : جمع الكُلية ، يكون مِن السّحاب أسفلُه ، فيكون معنى البيت الأول : أنّه يستمطرُ على قبرِ الشّنفرَى الغمامَ الكثير الماء الذاهب صباحاً و مساءً ليلاً و نهاراً- العانس : الرّجل إذا أسنّ و لَم يتزوّج ، و يقال : أعنس الشّيبُ وجهَه : خالطَه (نفس المصدر فى الهامش) .

[3] – شوقى ضيف : فنون الأدب العربى ، الفن الغنائى ٢- الرثاء ، ط ٤ ، دار المعارف ، القاهرة ، لا ت ، ص ٧ .

مع العناية التّامّة بموسيقاهم و أوزانهم و الملائمة بين أنغامِهم و شعور الحزن الذى يتعمّقُ قلوبهم و أفئدتهم ، و كان يُساهمُ فى هذا الفنّ النّساءُ و الرّجال ، بَل ربّما كان للنّساء الحظّ الأوفر مِن القيامِ عليه ، إذ كُنَّ هنَّ اللائى يَقُمنَ على ندبِ الميّت أيّاماً ، بَل ربّما امتدَّ قيامهنّ عليه سنواتٍ ، و كنَّ يحلقن شعورهنّ و يلطمنَ خدودهنّ بأيديهنّ و بالنّعالِ و الجلودِ أحياناً ، و قد يقُمنَ بذلک فى مجالس القبيلةِ و على القبور ، و فى المواسمِ العظام كموسمِ (عكاظ)[1] .

العصر الإسلامى– وفاةُ رسول الله صلى الله عليه و آله :

كان الرّثاءُ هكذا إلى أن أتى الإسلامُ و قضى على الجاهليةِ بِكُلِّ ما طُوى فيها مِن كهانةٍ و خرافةٍ، و بذلک إرتقَى بعقل الإنسان إذ خلَّصَه مِن الحماقاتِ و التّرهات . كذلک أخذ الإسلامُ يُرسى القواعدَ الإجتماعية لهذه الأمّةِ بحيث يشعر كلُّ واحدٍ منهم بمشاعر أخيه باذلاً له كلّ ما يستطيع ، كذلک كان حالُ الشّعر و الرّثاء فى ارتقاءٍ كباقى القيَمِ الإنسانية .

تذخر كتبُ الأدب و التّاريخ بما نُظم مِن أشعارٍ فى صدر الإسلام ، نلقاها فى كلّ ما يُصادفُنا مِن أحداثِ العصرِ ، فليسَ هناک حدثٌ كبيرٌ إلا و يواكبُهُ الشعرُ و يُرافقُه . فالشّعرُ لَم يتوقّف و لَم يتخلف فى العصر الإسلامى ، و هذا طبيعىٌ لأنَّ مَن عاشوا فيه كانوا يعيشون مِن قبلِه فى الجاهليّةِ و كانوا قد انحلت عُقدَةُ لسانهم و عبَّروا بالشّعرِ عن عواطفهم و مَشاعرهم ، فلَمّا أتمَّ اللهُ عليهم نعمةَ الإسلام ظَلّوا يصطنعونه و ينظمونه بارتقاءٍ عقلىٍ فى المعنى و الألفاظ ، و مضى كثيرون ينظمون و يرثونَ فى هذا العصر لا معَ الأحداث ، بَل مع أنفسِهم و قبائلهم و رثاءِ أقربائِهم مستضيئينَ إلى حدٍّ كبيرٍ بالإسلام . فنرَى متمّم بن نويرة بن جمرة اليربوعى التّميمى ، و هو صحابىٌ مِن أشرافِ قومِه و مِن فحولِ الشّعراء يرثى أخاه مالک حيث قُتِل فى حربِ الرّدة ، و مِن بديع قوله :

لقَد لامَنى عندَ القبورِ علَى الـبُكا ... صديقى لتَذرافِ الدّموعِ السّوافِکِ

يقول : أتَـبـكـى كُلَّ قبرٍ رأيتَه ؟ ... لِـقَـبـرٍ ثوَى بينَ اللّوَى فالدّكادکِ

فقلتُ له إنَّ الشَّجَى يَبعَثُ الشَّجَى ... فَدَعنى ، فهذا كُلُّـهُ قـبـرُ مـالـکِ[2]

حينَما أفَلَ كوكب الرّسالة الإسلامية الذى أضاءَ ما بينَ المشرقِ و المغربِ و تُوفّى رسول الله صلى الله عليه و آله هلَع المسلمون و فزَعوا لهذا النّبأ العظيم ، و استحالَت المدينةُ المنوّرةُ إلى بركان يقذفُ بحممِ النّدب و البكاء ، و

[1] – شوقى ضيف : فنون الأدب العربى ، الفن الغنائى ٢– الرثاء ، ط ۴ ، دار المعارف ، القاهرة ، لا ت ، ص ٨ .

[2] – إميل ناصيف : أروع ما قيل فى الرّثاء ، ط ٢ ، دار الجيل ، بيروت ، لا ت ، ص ٢١ .

اشتعلَت نيرانُ الحُزن فی کلِّ صدرٍ و فی کلِّ قلبٍ . لقد کانَت وفاة النّبیِّ الأعظم صلی الله علیه و آله أعظم حادثة تعتری الأمّة الإسلامیة النّاهضة بمجتمعها الفتیّ ، فاهتزّ لها حزناً و اضطراباً و التیاعاً علی الرَّغمِ مِن تهیئتهِ صلی الله علیه و آله نفوسَ أصحابه لهذا الرّحیل ، و تأکیده علیهم إلتزام سبیله مِن بعدِه فی وصایا و خطبٍ کثیرةٍ ، و مِن هنا کان الأفق الشّعری یَمتَدُّ إلی زوایا حرجةٍ أو معتمة أو معذّبة حسب وجهةِ نظرِ کلِّ شاعر ، و حسب انفعاله معَ هذه الفاجعة الألیمة ، و أشدّ النّاس ألماً و أعظمهم فاجعةً بهذا المصاب الجلَل ، إبنةُ رسول الله صلی الله علیه و آله الصّدیقة الطّاهرة فاطمة الزّهراء سلام الله علیها ، و قد بَکَت کلَّ ساعاتِ عمرها اللائی عاشَتها بعدَ الرّسول الأعظم ، و مِن جملةِ مرثیّاتِها :

إغـبَـرَّ آفـاقُ البِلاد و کُـوِّرَت شمسُ النّهارِ و أظـلَـم العصرانِ

و الأرضُ مِن بعدِ النّبیِّ حَزینةٌ أسَـفـاً علیه کـثیرة الـرّجـفـانِ

فلـیـبـکِه شرق البلاد و غربها ولـتـبـکِـه مُـضـرٌ و کـلُّ یَمانِ

نَفسی فِداؤُکَ ما لرأسِک مائلاً ما وَسَّـدوکَ وسـادةَ الـوسـنانِ[1]

و علی المنوالِ نفسه نجد أمیرالمؤمنین علی بن أبی طالب علیه السلام حیث یحمل فی صدرِه لوعةً متعمّقةً بمصاب رسول الله صلی الله علیه و آله ، و أنَّ مراثیه للرسول الأعظم تحکی عن المُعاناة النّفسیّةِ الدّاخلیةِ ، و هو یَتحلّی الصبرَ الجمیلَ أمامَ هول الفاجعة ، کما فی هذین البیتین و فیهما إشارةٌ إلی اضطراب الوضع السیاسی الدّینی بعدَ غیابه صلی الله علیه و آله :

نَفسی علی حسراتِـها محبوسةٌ یا لَیتها خَرَجَت مـعَ الـزَّفَـراتِ

لا خیرَ بعدَک فی الحیاةِ و إنّما أبکی مخافةَ أن تَـطـولَ حیاتی[2]

[1] - أخطب خوارزم أبو المؤیّد الموفق بن أحمد المکّی الخوارزمی : مقتلُ الحسین علیه السلام ، تحقیق : محمد السّماوی ، جزآن ، مجلّد واحد ، ط ۴ ، انتشارات أنوار الهُدی ، مطبعة وفا ، قم ، ۱۴۲۸ هـ ق ، ج ۱ ، ص۱۲۴ .

[2] – السید محسن الأمین العاملی : دیوان الإمام علی علیه السلام علی الروایةِ الصّحیحةِ ، ط ۱ ، دار المرتضی للطباعة و النشر و التوزیع ، بیروت ، ۱۴۲۸ هـ ق ، ص ۵۱ .

الرّثاءُالحسینی علیه السلام فی الأدبِ العربی :

سرعانَ ما أعقَبت وفاةَ رسول الله صلی الله علیه و آله فاجعةُ شهادة الصّدیقة فاطمة الزّهراء سلام الله علیها ، فخَلَّفَت حزناً فی قلوبِ مُحبّی آل البیت علیهم السلام و رثاها أمیرالمؤمنین علیه السلام بأبیاتٍ أوردها القاضی القضاعی فی کتاب (دستور معالم الحکم) و هی :

أرَی عِـلـلَ الـدّنیا علَیَّ کثیرةٌ و صاحبها حتی المماتِ عَلیلُ

لِکُلِّ اجتماعٍ مِن خلیلینِ فرقةٌ و کُلُّ الذی دونَ المماتِ قلیلُ

و إنَّ افتِقادی فاطماً بعدَ أحمد دَلیلٌ علی أن لا یَـدومَ خلیلُ[1]

هکذا أخذتِ الرّزایا تأتی واحدة تلو أخرَی – و یَنمو معه الرّثاء الملتزم– مِن شهادةِ أمیرالمؤمنین علیه السلام ، ثمّ شهادة الإمام الحسن المجتبی علیه السلام ، حتی عام ۶۱ هـ ق حیث وقعت الکارثةُ العُظمَی و الدّاهیةُ الکُبرَی و هی واقعةُ عاشوراء الدّامیة التی تهون المصائبُ دونها ، و تستهلّ النّوائب عندها ، و التی أدَّت إلی قتلِ سیدالشهداء علیه السلام عَطشاناً مظلوماً وحیداً غریباً لا ناصرَ له و لا معین ، و قد قُتِل أولادُه و إخوتُه و أقربائُه ، و حُرِقَت خیامُه ، و انتُهِکَت حرمَتُه و حرمةُ آل البیت علیهم السلام ، و سُبِیَت نساؤُه و بناتُه و أخَواتُه ، و استُشهِدَ أصحابُه مِمَّن خرَجَ معه حفاظاً علی حُرمَةِ الإسلام التی ما فتئت تُنتَهکُ علی أیدی حُکّامِ السّوء مِن أمثالِ معاویة و ابنه یزید لعنهما اللهُ المنتقمُ الجبّار .

إنَّ مأساةَ الطَّفِّ کوَّنَت عندَ الموالین لأهل البیت علیهم السلام هذا الأدب الثَّرِّ و الشعور الفیّاض و خلقت منهم أکبر عددٍ مِن الشّعراء ، حتی قیل : (إنَّ الأدبَ شیعیٌ) ، و قیل : (و هل وجَدتَ أدیباً غیر شیعیّ ؟)[2] ، ذلک لأنَّ الکبتَ و الألمَ یدفعان الإنسان للنّظمِ و تصویر الحال بلسان المقال ، و مادام المرءُ یشعرُ بالثّأرِ و حرارة الثّکل لا ینامُ عَن ثأرِه فیندفع یصوّر حاله معدّداً آلامه مسامراً أحزانَه فی لیالیه و أیّامه و فی خلواتِه و مجتمعاتِه .

هکذا کانت ثورةُ الحسین علیه السلام غَطَّت بسَناها المشارقَ و المغاربَ ، و استخدمتِ العقولَ و الأفکار ، فهی نورٌ یتوهّجُ فی قلوبِ المسلمین ، فیندفع إلی أفواهِهم مدحاً و رثاءً ، و هی أنشودةُ العِزِّ فی فَمِ الأجیال تَهزُّ القلوبَ و تطربها ، و تحیی النّفوسَ بالعزائمِ الحیّةِ ، ذلک لأنَّ هَدفَ الحسین علیه السلام ما کان هَدفاً خاصّاً حتی تختصّ

---

[1] – السید محسن الأمین العاملی : دیوان الإمام علی علیه السلام علی الروایةِ الصّحیحةِ ، ط ۱ ، دار المرتضی للطباعة و النشر و التوزیع ، بیروت ، ۱۴۲۸ هـ ق ، ص ۱۱۸ .

[2] – نفس المصدر : ج ۱ ، ص ۱۷ .

به فئةٌ دون فئة ، أو يقتصر على طائفةٍ دون طائفة ، بَل كان هدَفاً عالَمياً ، فعَلى كلِّ ذى شعورٍ حىٍّ أن يحتفلَ بذِكراه .

نبذة حياة الربيعى :

هو العلامة الفاضل و الفقيه الكامل ، الجامعُ للمعقول و المنقول ، الأديب النّحرير ، المرحوم الشيخ عبدالعظيم إبن الورع التّقى الشيخ حسين إبن الشيخ على الجدعلى (التوبلى) البحرانى الرّبيعى . ينتهى نسبه إلى تغلب بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان . وُلد فى اليوم الحادى عشر مِن شهر ذى القعدة الحرام سنة ١٣٢٣ هـ ق فى قصبة النّصار مِن مدينة آبادان و هى مِن أعمال محافظة خوزستان جنوب غربى جمهورية الإسلامية الإيرانية ، فقد هاجرَ إليها مِن (جدعلى) و هى قريةٌ مِن قرى توبلى فى البحرين جدُّه العلامة الشيخ على الآنف الذّكر فى أواخر القرن الثالث عشر الهجرى . تربّى العلامة فى أحضانِ والده المقدّس تربيةً صالحةً ، و بدأ إشتغاله فى المقدّمات على يدِهِ الشّريفة و تلمّذ عنده زمناً لا يستهان به . بعد ذلک هاجرَ فى حياةِ والده إلى النّجف الأشرف حيث فيه كعبة الآمال و محطّ الرّحال لطلاب العلم ، فى أواخر سنة ١٣٤٢ هـ ق و أقامَ فيها إحدَى و عشرينَ سنة يستسقى مِن مناهلها المُترعة ، و يغتذى ثمارها الرّوحية ، حيث قرأ السّطوح على علماء فضلاء مِن مشاهير العلماء . ثمّ غادَر النّجف إلى بلادِهِ آخر سنة ١٣٦٣ هـ ق فقيهاً مجتهداً عالماً العلوم العقلية و النّقلية مزوداً بالإجازات مِن :

١ – سماحة الإمام السيد أبوالحسن الإصفهانى قدس سره
٢ – العلامة الشيخ آقا ضياءالدين العراقى
٣ – الشيخ عبدالنبى العراقى
٤ – آية الله السيد أبوالقاسم الخوئى

قد أفل هذا القمر المضئ ، و طارَ إلى جنانِه ، و ثلم على إثرِ وفاتِه الإسلامُ و أدبُه ، فى الثّامن مِن جمادى الأولى سنة ١٣٩٩ هـ ق رضوان الله تعالى إليه ، و جزاه سيدُالشهداء عليه السلام خيرَ الجزاء ، و دُفِنَ فى (نهر العلم) .

إنَّ الكلام عن شاعريّة العلامة الشيخ عبدالعظيم الربيعى فى غنىً عن البسطِ و التّحليل بِالنّظرِ لِما عرَفته الأوساط الحوزويّةِ و الجامعيةِ و كذلک أصحاب المنابر و الخطباء خاصّةً فى السّنين الأخيرة و شرحِ (ألفيّتِه فى النّحو) مرةً فى جامعة (آزاد خرمشهر) و مرةً فى جامعة (شهيد تشمران الأهواز) ، و أيضاً لِما سمعوه و وعوه مِن شعرِه أو بالأحرَى (رثائه) الذى يطرق الأسماع ، فلقَد نال إعجابَ الجميع ، و هيمَن على مشاعرِهم فامتلَكَها و نمرّ على شرح أبيات منه :

كَلَّفتَ عينَکَ أن تصيبَ رُقادَها و حديثُ عاشورا أطالَ سُهادَها

عـينٌ قد اختَلَسَت بياضَ هلالِه هلا تُريقُ مع الـدّموعِ سوادَهـا

لِـتَخُطَّ فـوقَ الخدِّ ذكرَ حديثهِ جزَعاً و تَـتّـَخذَ السَّوادِ مِدادَهـا

معانى المفردات :

رقادها : الرُّقاد و الرُّقود : النوم يكون بالليل و النهار عند العرب .

سُهادها : السُّهد و السُّهاد الأرَق و هو نقيض الرقاد ، سَهِدَ يسهَدُ ، رجلٌ سُهُدٌ : قليل النوم .

إختلست : التخالُس التّسالب ، إختلستَه إذا استلَبته[1].

دراسة الأسلوب :

أتى شاعرنا العلامة بهذه المرثية فى بحر (الكامل التامّ الصحيح) . يتألّف كلُّ بيتٍ من البحر الكامل مِن تفعيلَةِ (متفاعلن U-UU-) تتكرّرُ ستّ مراتٍ ، و إنما قلنا التام الصحيح لأنّه دخلَ (زِحاف الإضمار) على تفعيلاتِه ، و هو تسكين الحرف الثانى من التفعيلة ، فعندئذٍ يُغيّرها إلى (مستفعلن - - U -)و هذا الزحاف يدخل على تفعيلاتِ هذا البحر بأنواعه المختلفة بكثرةٍ حتى أنه قلّما يخلو بيتٌ مِن هذا الزحاف[2].

و جاءَت هذه القصيدة داليةً لأنّ حروف المدّ و هى : (الالف ، الواو ، الياء) إضافةً إلى الهاء لا تصلحُ أن تكون حرفَ رويٍّ للقصائد إلا فى مواضع ، فتتكوّن القافيةُ هنا مِن : (الدال) و هو حرفُ رويٍّ و عليه تقوم جميع الأبيات و إليه تنسبُ القصيدة ، و مِن (الألف) الذى تقيّد به الشاعرُ قبل (الدال) و يُسمّى (الرّدف) و هو حرفُ مدٍّ يأتى قبل حرف الرّوى[3]، و كذلک مِن (ها) و يسمّى (الوصل) و هو ما لا يصلح أن يكون حرفاً للرّوى و قد جاءَ بعدَه[4].

قد رَثى الرضىّ سيدَ الشهداء عليه السلام فى يوم عاشوراء سنة ٣٩١ هـ ق بقصيدةٍ على هذا البحر و القافية مطلعها:

هذى المنازلُ بـالغميمِ فـنـادِها واسكَب سخىَّ العينِ بعدَ جمادِها[5]

---

[1] – ابن منظور : ذيل : (رقد) (سهد) (خلس) .

[2] – أباذر عباچى : العروض و القافية ، ط ١ ، انتشارات جامعة پيام نور ، ١٣٨٩ هـ ش ، ص ٢٤ .

[3] – نفس المصدر ، ص ٩٢ .

[4] – نفس المصدر .

[5] – محمد بن أبى أحمد ، الشريف الرضى : ديوان الشريف الرضى ، شرح : محمد بن سليم اللبابيدى البيروتى ، مجلدان ، منشورات مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، بيروت ، لات ، ج ١ ، ص ٢٧٨ . سكبَ : صَبَّ (لويس معلوف : ذيل سكب) .

و كذلک فی نفس البحر و القافية قصيدةٌ لعلی بن ماجد الجِدحَفصی المتوفی سنة ١٢٠٨ هـ ق يرثی سيدالشهداء عليه السلام هذا المطلع :

ما لِلعيون جَفت لذيذ رقادِها عــبــراء إلفَ بكاءها و سهادها[١]

أيضاً مرثيةٌ مِن نظمِ الشيخ نصرالله العاملی الطّيبی المتوفی سنة ١٢٣٠ هـ ق التی مِن أبياتها :

هيهاتَ لا كربٌ كوقعَةِ كربلا كلا و لا جهدٌ كيومِ جــهــادِها[٢]

و هذا سيد سليمان المتوفی سنة ١٢٤٧ هـ ق والدُ السيد حيدر الحلی يرثی سيد الشهداء عليه السلام فی نفس البحر و القافية مطلعها :

هذی الطفوف و ذی رسومُ عهادِها فاملأ بِفيضِ الدّمعِ رحبَ وهادِها[٣]

كذلک فی بحر البحر الكامل التام الصحيح و نفس القافية المقصودة ما نظمَه الشيخ مغامس بن داغر الحلی المتوفی حوالی سنة ٨٥٠ هـ ق فی مدح آل البيت و تظلّمهم صلوات الله عليهم و هذا المطلع :

حــيّــا الإله كتيبة مرتادها يطوی له سهل الفلا و وهادها[٤]

الواضح أنّ شعراء الرّثاء الحسينی قد اعتادوا على هذا الوزن و ربما القافية ، و هذه الظاهرةُ شائعةٌ فی القرن الثانی عشر خاصّةً ، فكثيراً ما يأتی هذا البحر فی الرّثاء و قلّما نجدُه فی الأغراض الأخرى ، هذا أمير الرثاء السيدحيدر الحلّی يرثی سيدالشهداء عليه السلام بقصيدةٍ فی الحبر نفسه و يقول :

---

[١] – جواد شبر : أدب الطّف أو شعراء الحسين عليه السلام ، عشرة أجزاء ، ط ١ ، مؤسسة التاريخ العربی ، بيروت ، ١٤١٨ هـ ق ، ج ٦ ، ص ١٨ . عبراء : مِن عَبَر أی : حزَنَ و سالت عبرته– إلف : الصّديق و المؤانس (لويس معلوف : ذيل عبر و ألف) .

[٢] – نفس المصدر ، ص ١٨٤ .

[٣] – نفس المصدر ، ص ٢٨٢ . عِهاد : جمع العِهدة و هی أوّل مطر الرّبيع– وِهاد : جمع الوَهدة و هی الأرض المنخفضة (لويس معلوف : ذيل عهد و وهد) .

[٤] – نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٢٩٧ .

كم ذا تُطارحُ فی منیً وَرقاءَها خَفِّض علیکَ فلیسَ داؤُکَ داؤَها[1]

و لعلّ السرَّ فی کثرة استعمالِ هذا الوزن فی الرثاء هو موسیقاه المُحزن الموحی بالأسی و الکآبة ، حیث یسهل للنّاظم أن یعبّر عمّا فی نفسهِ من العاطفةِ الشّجیّةِ مِن ناحیةٍ ، و تسمع الأذن جرسَ العزاء مِن حناجر قد خنقتها العبرات مِن ناحیةٍ أخری ، و قد عرفه العربُ طریقاً سهلاً للتّعبیر عن آلامه ، لذلک نجد المراثی مِن بدءِها کثیرةً فی هذا البحر ، و الظاهرُ أنَّ مِن أقدم ما وصل إلینا فی هذا البحر ما قاله المرقّش الأکبر و هو أخو جدِّ طرفة بن العبد البکری صاحب المعلقة أو أخو جدِّ أبیه[2] و مطلعها :

ما قلتُ هیَّجَ عینَه لِبُکائِها مَحسورةً باتَت علی إغفائها[3]

فشاعرُنا العلامة قد حذا حذوَ السابقین فی وزن هذه المرثیة و سأدرسُ أجزائها و أشرحُ معانیها حسب استطاعتی إن شاء الله تعالی .

الألفاظ :

جاءَت الألفاظ فصیحةً سهلةً لا غرابةَ فیها و لا ابتذالَ حیثُ أخذَ شاعرُنا الوسطَ ، کذلک مِن حیث التّرکیب وحدةٌ منسجمةٌ کأنَّ جملاتِها حلقاتٌ مِن سلسلةٍ واحدةٍ بما فیهنَّ ارتباطٌ لا یمکن الإستغناءُ عن أیٍّ منها .

(أبحاثٌ لغویة نحویة) :

إستعملَ (کلَّفتَ) علی وزن (فَعَّلَ) و هو یأتی للتّکثیر نحو : (نَعَّمَهُ اللهُ) أی : کثر نعمته علیه و هذا یلائمُ الکثرةَ المطلوبةَ هنا ، فالّذی یسهر اللّیل لِعلّةٍ ، یطول ذلک مِن أوّل اللیلِ إلی طلوعِ الفجر ، و یستغرقُ ساعاتٍ کثیرةٍ ، فکیفَ به إذا أصابته داهیةٌ قد سلَبَه ذکرُها هُجوعَه فی أغلبِ اللّیالی ، و أیُّ نازلةٍ أدهی مِن ذِکرِ واقعةِ عاشوراء ؟ !

---

[1] – السیدحیدر الحلی : دیوان السیدحیدر الحلی ، تحقیق : علی الخاقانی ، مجلد واحد ، جزآن ، ط ۴ ، منشورات الأعلمی للمطبوعات ، بیروت ، ۱۴۰۴ هـ ق ، جزء ۱ ، ص ۵۰ . ورقاء : الحمامة (لویس معلوف : ذیل ورق) .

[2] – فؤاد أفرام البستانی : المجانی الحدیثة عن مجانی الأب شیخو ، تجدید و اختیار و شرح : لجنة من الأساتذة ، خمسة أجزاء ، ط ۶ ، انتشارت ذوی القربی ، قم ، مطبعة روح الأمین ، ۱۴۳۰ هـ ق ، ج ۱ ، ص ۷۵ .

[3] – محمد بن یعلی المفضل الضبی الکوفی : المفضلیات ، تحقیق : قصی الحسین ، منشورات دار و مکتبة الهلال ، بیروت ، ۲۰۰۴ م ، ص ۱۳۳ .

ثمّ يأتى بفعلِ (إختلَست) بيدَ أنّه كان باستطاعتهِ أن يأتى بـ (محت) أو (أعدمت) أو (أذهبت) و ما شابَه معَ مراعاةِ الوزنِ ، لكنّ الخَلسَ هو السّلبُ و الأخذُ فى نهزةٍ و مُختالَةٍ ، و هذا يُشير على عدمِ توجّه الباكى لهذه الرّزية إلى نفسهِ و نسيانه إيّاها ، و هل يكون ذلک بحيث يفقدُ الإنسانُ صوابَه إلا فى مصيبةٍ كبرى ؟ !

أمّا (هَلّا) فهى مِن حروف التحضيض التى تختصُّ بالفعل و معناها إذا دخلت على الماضى : التَّوبيخُ و اللَّومُ على تركِ الفعل ، و فى المضارع : الحَضُّ على الفعل و الطّلب له[1]، فدخوله هنا على فعل مضارع (تريق) هو الحثُّ على البكاء و الإكثارُ منه . أيضاً قد نَوَّع ناظمنا العلامةُ فى عباراته بين الخبر و الإنشاء لإثارةِ الذهن و جذب الإنتباه فى ثلاثةِ أبياتٍ متتالية ، و المعنى المرتبط بعضها ببعض .

الموسيقى :

قد قلنا آنفاً أنَّ بحرَ الكامل مِن البحور العَروضية الشعرية الذى يكثرُ استعماله فى الرّثاء للحُزن المكنون فى إيقاعاتِه ، مِن ناحيةٍ أخرى إنَّ للألفاظِ أرواحاً ، و وظيفة التعبير الجيّد أن يطلق هذه الأرواح فى جوِّها الملائم لطبيعتِها حتى تستطيع التعبير المثير . إنَّ الصوتَ الحاصل مِن أفعال (كلَّفت) ، (إختلَست) ، (تخُطّ) و (تتّخذ) هى الخشونة و الزَّجرةُ المُرتجفة التى تزيد المعنى شِدَّةً ، ويكأنَّ حزنَ الناظم ممزوجٌ بالغضب إحتجاجاً لِما قد جرى ، و إعلاناً لِما فى نفسه مِن الأذى ، فهو جوٌّ كئيبٌ مختنقُ الأنفاس .

المحسنات البديعية :

الطباق : و هو المطابقة و تُسمّى التّضاد أيضاً و هى الجمعُ بين متضادّين ، أى : معنيَين متقابلين فى الجملة ، أى : يكون بينهما تقابل و تناف و لو فى بعض الصّور سواءً كان التّقابل حقيقيّاً أو اعتبارياً و سواءً كان تقابل التّضاد أو تقابل الإيجاب و السّلب أو تقابل العدم و الملكة أو تقابل التّضايف أو ما يشبه شيئاً مِن ذلک[2] كما هو بين : (رقادها) و (سهادها)

و بين (بياض) و (سوادها)

مراعاة النّظير : و يُسمّى التّناسب و التّوفيق ، و الإئتلاف و التّلفيق أيضاً و هو جمع أمرٍ و ما يناسبه لا بالتّضاد[3]، كما هو الحال بين : (عينٌ) ، (بياض) ، (هلاله) ، (تريق) ، (الدموع) و (سوادها)

و بين : (لتخطّ) ، (السّواد) و (مدادها)

---

[1] – محمد بن الحسن رضى الدين الأسترآبادى : شرح الرضى على الكافية ، تصحيح و تعليق : يوسف حسن عمر ، أربعة أجزاء ، ط ٢ ، مؤسسة الصادق للطباعة و النشر ، مطبعة ستاره ، تهران ، ١٣٨۴ هـ ش ، ج ۴ ، ص ۴۴٢ .

[2] – سعدالدين مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازانى : شرح مختصر المعانى ، ط ٣ ، منشورات دار الذخائر ، مطبعة نمونه ، قم ، ١٣۶٨ هـ ش ، ص ٣١۵ .

[3] – نفس المصدر : ص ٣١٩ .

و كذلک بين : (ذكرَ) و (حديثه)

التّجريد : لغةً : إزالة الشئ عن غيره ، و اصطلاحاً : أن ينتزعَ المتكلّم مِن أمرٍ ذى صفةٍ أمراً آخر مثله فى تلک الصفة ، مبالغةً فى كمالها فى المنتزع منه حتى إنّه قد صار منها بحيث يمكن أن ينتزع منه موصوفٌ آخر بها[1]، و هنا قد جَرَّد الشاعرُ نفسَه و انتزعَ منه شخصاً آخر و خاطبه فى الأبيات الثلاثة و ذلک لتقوية وقعِ المعنى فى النّفوس لأنَّ القارئ يحسب نفسه فى موضع الخطاب .

تشابه الأطراف : و هو نوعان ؛ فالمعنويُّ منه أن يَختمَ المتكلم كلامَه بما يناسبُ ابتداءَه فى المعنى[2]، كما فى البيت الثالث فقد ابتدء بـ (لتخُطَّ) و اختتم بـ (مدادها) فالمداد يناسب الخطّ .

الجناس : بين اللّفظَين و هو تشابُههُما فى اللّفظ[3] و له أنواعٌ كالتّام و التّركيب و المُتشابه و المفروق و المُحرّف و غيرهم ، كما هو بين : (رقادها) و (سهادها) فى البيت الأول و بين : (السواد) و (مداد) فى البيت الثالث .

دراسة المعنى :

المعانى واضحةٌ سهلةٌ ، ففى البيت الأول هو الرُّقاد و ترک النوم عند ذِكرِ وَقعَةِ الطَّفِّ و قد سبَق مِن ذَكرَه مِن الشعراء ، أمّا البيتين الثانى و الثالث فقد نظَم جديداً لم يسبقه أحدٌ و هو إراقةُ سواد العين مع الدموع و مِن ثمَّةَ كتابةُ ما حدث بدلَ المداد بهذا السّواد ، فابتكارٌ حسنٌ يأتى ذكرُه فى الخيال .

دراسة العاطفة و الخيال :

إنَّ الرصيد المذخور مِن الألفاظ و صورِها و ظلالها و إيقاعاتها فى الذاكرة قد انطلق متناسقاً متناغماً مع الإنفعال الشعورى ، فالعاطفة هنا دينيةٌ حارّةٌ صادقةٌ فى حزنها و بما أنَّ شاعرنا العلامة استفاد مِن أدات التحضيض و استعمل باب التفعيل قد زادها شيئاً من الحماسة ، و بما أنّه جرَّد نفسَه قد سهل انتقال الإحساس إلى المخاطب و هو القارئ أو السامع .

أمّا الخيال يأتى بعد العاطفة ، و هو الحاصل لها فكلّما صدقت العاطفةُ و زادت حرارةً ، توسَّع الخيال ، و هناک نوعٌ مِن الألفاظ يرسم صورة الموضوع ، و لكن لا بجرسه الذى يلقيه فى الأذن بل بظله الذى يلقيه فى الخيال ، و للألفاظ كما للعبارات ظلال خاصة يلحظها الحس البصير حينما يوجه إليها انتباهه ، و حينما يستدعى فى خياله صورة مدلولها الحسّية . فقد رسمَ الناظمُ فى هذه الأبيات الثلاثة لوحةً فنيَّةً تتمثَّل فى صورةِ إنسانٍ مكتئبٍ قد

---

[1] – احمد الهاشمى : جواهر البلاغة ، تدقيق و تعليق : سليمان الصالح ، ط ٢ ، دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ١۴٢٨ هـ ق ، ص ٣٣٥ .

[2] – محمد بن عبدالرحمن الخطيب القزوينى : تلخيص المفتاح فى المعانى و البيان و البديع ، ط ٣ ، منشورات دار الذخائر ، مطبعة نمونه ، قم ، ١٣۶٨ هـ ش ، ص ٢٣٠ .

[3] – نفس المصدر ، ص ٣۴٩ .

سُلب منه النوم و ما ذلک إلا أنّ ذکرَ واقعةٍ عاشوراء الدامية قد أصاب رقادَه و أخذ فی هذا السهر الطويل يَبکی بکاءَ الثکلی حتی جَفَّت دموعه و أريق سواد مُقلَتَيه بدل الدّموع . بعد ذلک يأتی فی صدر البيت الثالث باستعارةٍ مکنيَّةٍ حيث شَبَّه الخَدَّ بقِرطاسٍ و حذف المشبَّه به و أشارَ بلوازمه مع تناسی التشبيه فتخيَّل الخدَّ هو القرطاس الذی يُکتَب عليه و يَصِل هذا الخيال إلی ذروَته لمّا صارت أداةُ الکتابة سوادَ عينيه بدل الدّوات و القلم حالَ کونه فی ذلک الوقت جَزوعاً مضطرباً ، و مِن ناحيةٍ أخری إستبدلَ لون الأسود بحمرةِ الدّم أو ما شابه بياناً للحِداد و لبس السّواد إلی يوم المعاد .

النتيجة :

١ -الرّثاءُ فَنٌّ قديمٌ مِن أنواعِ الأغراضِ الشّعريّةِ ، و مِن أصدَقِها حيثُ يُئَبِّنُ فيه الشّاعرُ الميّتَ ، أو يندبُه بِکلماتٍ حارَّةٍ تُعَبِّرُ عَمّا فی ضَميرِه تِجاه المرثی عليه .

٢ – الرِّثاءُ الحسينی مِن أهَمِّ ضروبِ الرّثاءِ ، و الذی يرثی فيه الشّعراءُ سيّدَالشهداء ، و يَختصُّ بِفاجِعَةِ عاشوراء ، فَمِن ثَمَّةَ صارَ باباً فی الأدب العربی حتی أُطلِقَ عليه أدبُ الطَّفِّ أو غير ذلک .

٣ – إنَّ العلامةَ الرّبيعی أحدُ هؤلاء الذين إهتَمّوا بغَرَضِ الرّثاء ، فهو شاعرُ الرّثاء الحسينیِّ بِحَقٍّ ، فقَد شَذَّ أن نَجِدَ باقی الأغراض فی شِعرِه و أدَبِه .

٤ – إنَّ العلامةَ يرثی سيّدَالشهداء بِعاطفةٍ صادِقةٍ ، و يحسُّ کأنّه فی عُمقِ المُصيبةِ و تَجری عليه ، و يُعَبِّرُ عَن أحاسيسِه بِعباراتٍ تنبئ عَن مَدَی تَأثّرِه و صِدقِه ، کذلک کثيراً ما يَبدءُ کلامَه بالإستفهامِ و النّداء ، و يتّخذُ التّشبيهاتِ طُرُقاً لِتَقريرِ معانيه فی ذهنِ القارئ .

٥ -إنَّ أدَبَ الرّثاء الحسينی بابٌ واسِعُ النّطاق متنوّعُ الجَوانبِ ، ينبغی فيه التّأمّلُ و العملُ العِلميّ ، و بِما أنّه نابِعٌ عَن عقيدةٍ و إيمانٍ ، العاطفةُ فيه أصدقُ ما يکونُ فی سماء الخالدِ الأدبی .

المراجع و المصادر :

١ -القران الكريم .

٢ -أبو عبدالرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدى : كتاب العين ، ط ٢ ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ١۴٢۶ هـ ق

٣ -إميل ناصيف : أروع ما قيل فى الرّثاء ، ط ٢ ، دار الجيل ، بيروت ، لا ت

۴ -الأمين العاملى ، السيد محسن : ديوان الإمام على عليه السلام على الروايةِ الصّحيحةِ ، ط ١ ، دار المرتضى للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ١۴٢٨ هـ ق

۵ -أخطب خوارزم أبو المؤيّد الموفق بن أحمد المكّى الخوارزمى : مقتلُ الحسين عليه السلام ، تحقيق : محمد السّماوى ، جزآن ، مجلّد واحد ، ط ۴ ، انتشارات أنوار الهُدى ، مطبعة وفا ، قم ، ١۴٢٨ هـ ق

۶ -سعدالدين مسعود بن عمر بن عبدالله التفتازانى : شرح مختصر المعانى ، ط ٣ ، منشورات دار الذخائر ، مطبعة نمونه ، قم ، ١٣۶٨ هـ ش

٧ -فؤاد أفرام البستانى : المجانى الحديثة عن مجانى الأب شيخو ، تجديد و اختيار و شرح : لجنة من الأساتذة ، خمسة أجزاء ، ط ۶ ، انتشارت ذوى القربى ، قم ، مطبعة روح الأمين ، ١۴٣٠ هـ ق

٨ -جواد شبر : أدب الطّف أو شعراء الحسين عليه السلام ، عشرة أجزاء ، ط ١ ، مؤسسة التاريخ العربى ، بيروت ، ١۴١٨ هـ ق

٩ -السيدحيدر الحلى : ديوان السيدحيدر الحلى ، تحقيق : على الخاقانى ، مجلد واحد ، جزآن ، ط ۴ ، منشورات الأعلمى للمطبوعات ، بيروت ، ١۴٠۴ هـ ق

١٠ - احمد الهاشمى : جواهر البلاغة ، تدقيق و تعليق : سليمان الصالح ، ط ٢ ، دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، ١۴٢٨ هـ

١١ - أباذر عباچى : العروض و القافية ، ط ١ ، انتشارات جامعة پيام نور ، ١٣٨٩ هـ ش

١٢ - شوقى ضيف : فنون الأدب العربى ، الفن الغنائى ٢- الرثاء ، ط ۴ ، دار المعارف ، القاهرة ، لا ت

١٣ - محمد بن يعلى المفضل الضبى الكوفى : المفضليات ، تحقيق : قصى الحسين ، منشورات دار و مكتبة الهلال ، بيروت ، ٢٠٠۴ م

١۴ - المهلهل عدى بن ربيعة التغلبى : ديوان المهلهل ، شرح و تحقيق : أنطوان محسن القوّال ، دار الجيل للنشر و الطباعة و التوزيع ، بيروت ، ١۴٢۶ هـ ق